الاستقالة

زفاف سيء أفضل من جنازة مهيبة

ها قد انطوى يوم عمل ممل آخر، وانتهى فصل واحد من كتاب محكمة الثورة والإعدامات، إلا أن الفصل القادم لا يزال يحمل العديد من المفاجأت الكثيرة ولا أحد يستطيع التكهن بما سيحدث فيه... أتساءل هل يمكن أن يحدث أسوأ مما حدث! لا إجابة جاهزة لديّ ولكن كل شيء في هذا البلد جائز، إذ أن إلقاء قائدي العميد بشير في السجن قد شحنني بالحزن والألم والغضب من منظومة السلطة برمتها.

انتهت زياراتي القسرية المتكررة لمحكمة الثورة بعد أن حكمت ببراءة القائد في تهمة التطاول على سياسة الدولة العليا، وأنا ما زلتُ أنتظر النتيجة على طلب استقالتي من الجيش التي لم تُحسم بعد، لكن المحاكم العسكرية الأخرى والشهادات لم تنتهِ بعد.

أنا مُستمر في عملي في الجيش حيث يبدأ يومي الروتيني الاعتيادي بالفطور الشهي، ثم القراءة والإبحار في كنوز الأدب العالمي التي يزودني بها الجندي الرائع مصطفى، وصولاً إلى الاسترخاء ضمن قيلولة قصيرة تنتهي قبيل انتهاء الدوام الرسمي، أعود للبيت مرتاح كي أستمتع بدوش بارد منعش وأتناول الغداء الفاخر الذي تُعده زوجتي الحبيبة، أداعب أطفالي ثم أستعد للعمل، وأتجه إلي متجري الذي بدأت تجارته تزدهر رغم تدهور الأحوال الاقتصادية للبلد، وازدياد الضغط الاقتصادي على حياة الناس بسبب الحصار الاقتصادي الخانق على بلدنا العراق، الذي جعلَ الناس يبيعون كل ما تحت أيديهم من مصوغات ومواد أخرى كي يبتاعوا الطعام والدواء وباقي مستلزمات الحياة الضرورية.

القائد ما زال يقبع في سجن الحوتة في مديرية الاستخبارات العامة، بانتظار المحكمة العسكرية اللاحقة، لا تزال الحركة في معملنا غير طبيعية حتى وبعد أن تمت براءة القائد، إذ ورد إلى مسامعنا قرب موعد المحاكمة، حيث بدأ العد التنازلي لها.

أستيقظ على أشعة الشمس المتسللة عبر فتحات ستائر غرفة نومنا المبردة بواسطة جهاز تكييف نوع (جبسن)، ألملمُ أغراضي على عجل كي ألحق بالعجلة العسكرية التي تقلني مع زملاء آخرين إلى مكان عملي، الذي أصبح مُملاً ويفتقر إلى أبسط مقومات الرغبة والإثارة، ناهيك عن أنه مجرد مكان مُزعج وحامل للأخبار التي لا تسر القلب دومًا، الأخبار عن المحاكمة الثانية للقائد الذي ما زال خلف أسوار سجن الاستخبارات العسكرية تتوالى، ولكنها أصبحت على مرمى حجر.

في يوم حاسم أراده الله أن يكون خاتمة لهذه المأساة الإنسانية تمَّ تبليغنا بموعد محاكمة القائد ومكان انعقادها، أمضيت أنا وزوجتي وأولادي مساء تلك الليلة في زيارة إلى أهلي بعد أن ابتعت لهم من سوق البياع الشعبي الفواكه التي تعشقها أمي، وكذلك بعض أنواع الخضار ومواد أخرى حرصت زوجتي على إعدادها في مطبخها خصيصًا إلى والديّ، كما دسست مبلغ من المال بيد أمي، جلسنا مع أبي وأمي بعد أن حرصنا كثيرًا في عدم إعلامهما بأمر المحكمة كي لا نرهقهما بمشاكلها التي لا تنتهي.

جلسنا جلسة رائعة، تبادلنا الأحاديث، العائلة وأحوال الحياة العامة في البلد، بينما كان أطفالي الثلاثة يتقافزون حول رقابنا فرحين ويضفون على جلستنا جو ديناميكي حَي من الحركة والحياة، ما أن مضت ساعة حتى انفردنا أنا وأبي وكان العرق العراقي اللذيذ ثالثنا، مع المازات والمكسرات المتنوعة، إذ أنه لا يفارق جلساتنا الحميمة إطلاقًا، هذه الأمسية أَمدتني بطاقة وقوة كبيرة، وأنستني

قلق المحكمة وآثارها اللئيمة، على إثرها عدنا إلى البيت في صفاء وراحة نفسية كبيرة وغرقت في نوم عميق بعد أن أحدث العَرق مفعوله السحري.

منذ بداية أحداث هذه المأساة؛ يزودني بعض الضباط والمراتب حين زيارتهم لي في مكتبي أو حين ألتقيهم في الشوارع الفرعية لمعملنا بالمعلومات المهمة عن المحاولات الدؤوبة للمجموعة الحاقدة الرافعة لراية الحرب ضد القائد وضدي، ينقلون لي بعض الأخبار، يوضحون مواقفهم الداعمة لنا، حتى أنهم يحاولون فعليًا كبح جماح من يسعى إلى إضافة الزيت فوق حطب القضية كي يجعلها تستعر أكثر، ولكي يرسل القائد ومن على دينه إلى الجحيم، الحقيقة تقال ولا بد من الإشارة إلى أن موقف الكثير من زملائنا الضباط والمراتب كان مُشرف وبعيد عن كل أشكال العنصرية أو التفرقة الدينية، وهذا موقف يحمدون عليه.

صباح يوم صيفي من عام ١٩٩٢، والشمس تقبع على عرشها السماوي تنشر خيوطها الذهبية الدافئة بمحبة وكرم على الكون المطلق، توجهت هذه المرة بمعنويات أفضل نحو المحكمة العسكرية الأولى في ضاحية الأعظمية.

المحكمة العسكرية الأولى تقع على كتف شارع رئيسي يعجُ بالمارة ومحلات البضائع والفاكهة، وتسمع أصوات مناداة الباعة المتجولين، وكل هذا يُعطي انطباع بالأمان أفضل بكثير من المحكمة الثورية السابقة، بدأت محاكمة القائد وكانت تُجرى في ظروف حراسة وأمن اعتيادية تمامًا، غير التي كُنا نشاهدها ونعيشها في مديرية الأمن العامة، واستهلت باستدعاء بعض الشهود من الضباط ثم لحقني الدور.

ما أن تخطيت عتبة المحكمة حتى تراءى لي القائد وهو يمثل خلف شباك الاتهام بحال أفضل مما رأيته سابقًا، كان يقف منتصب حليق الذقن، وجهه استرد كثيرًا من عافيته ولونه، بدا القائد وكأنه كان مستعد للمنازلة أكثر من المرة السابقة.

كانت المحكمة تقع في المجمع العسكري في منطقة الكسرة التابعة لضاحية الأعظمية في بغداد، وهي عبارة عن قاعة معتدلة الحجم ذات سقف مرتفع جدًا، مضيئة كثيرًا لاحتواء جدرانها على شبابيك عريضة عديدة، منصة عالية يتربع عليها القضاة الثلاث، بشكل عام كان الجو يوحي للمرء بالثبات والهدوء أكثر بكثير مما كان في محكمة الثورة.

ما أن تخطيت عتبة باب قاعة المحكمة حتى تلوت في سري شهادتي المندائية، وكمحارب مخضرمُ انتصبت في مكاني ثم أقسمت وفق ديني أن أقول الحق وليس سواه، حتى بدأ رئيس المحكمة القاضي الذي كان برتبة عميد حقوقي يتوسط القاضيين العسكريين الآخرين بسؤالي عن طريقة صرف أموال الوحدة العسكرية، وهل يحصل فيها فساد أو اختلاس.

ليس من السهل السيطرة على ردة فعل المظلوم، ولما كنت أشعر بمظلومية كبيرة وقعت عليّ وعلى القائد؛ لم أستطع كبح جماح فورتي وثورتي في التقدم بجرأة كبيرة وقول كل ما كان يجول في نفسي وضميري، دون أي شعور بالخوف، ودون تحسب لأي عواقب، فأطلقت حنجرتي إلى مداها وتذكرت استراتيجية الدفاع المستندة على أقوال الحاكم المطلق التي نجحت أيما نجاح، لم يستطع عقلي وحكمتي أن يوقفا لساني الذي بدا هادر ثوري ناطق باسم الحق والعدل والإنصاف، وأذكرُ أهم شيء قلته للقاضي:

– سيدي القاضي إن أكبر سلطة في بلدنا العراق وهو الرئيس القائد صدام حسين (ح.ا)، يقول إن على جميع العراقيين الوطنيين الغيارى أن ينهضوا لإعادة إعمار بلد العراق لغرض إزالة جميع آثار العدوان الأمريكي الغاشم، وأن عليهم العمل خارج السياقات العادية، وأن يتجاوزوا الروتين الإداري القاتل، بشرط ألا يستغلوا إمكانيات الدولة، ولكن حين نعمل بأوامره ووصاياه، نعم نحن نعمل كذلك ويأتي من لا ضمير له ويكتب تقارير حزبية فيكون مصيرنا هنا، هل هذا ما يريده القائد؟ هل هذا ما أوصانا به القائد؟ وأنا أسأل

الآن لماذا يقف القائد العميد بشير خلف هذا السياج الخشبي بينما يتمتع المنافقون الخائبون بالحرية خارج أسوار هذه المحكمة الموقرة؟ لماذا أقف أنا هنا وحضرتك تسألني عن الأموال وغيرها؟ أهل لأنه نحن عراقيون وطنيون نعمل بجد وضمير وإخلاص؟ أين العدالة يا سيدي القاضي؟ فتارة نقف في حضرة المحكمة الخاصة وتارة أخرى نقف هنا في حضرتكم فأين الحق والحقوق؟ أنا لا أرى أي وجه للعدالة في هذا الوضع غير الطبيعي...

القاضي يقاطعني ويقول بابتسامة تطفو على وجهه ولكن بحسم صارم، رافع يدهُ التي تُشير إلى أن أقول إجابتي:

– يا ابني توجد عدالة ويوجد حق، وسترى...

عندها لم أبخل إطلاقًا في شرح وتفسير كيفية صرف أموال المعمل التي تذهب إلى تصريف أعمال إعادة البناء ولا غير ذلك، انتهيت من شهادتي وخرجت مرتاح الضمير من قاعة المحكمة في انتظار شهادة الضباط والمراتب الآخرين وقرار المحكمة... مرت فترة زمنية تكاد تحسب بقرون، وحالما انتهى أخر شاهد بدأت المحكمة بنطق الحكم النهائي، وكان يقضي ببراءة القائد من جميع التهم الباطلة المنسوبة إليه.

هكذا تمت براءة القائد وهكذا انتهى دابر المؤمرة التي حيكت ضد أناس خدموا البلد والجيش العراقي بكل ضمير وإخلاص وكفاءة، غمرتني سعادة لا توصف واعتراني شعور بالنصر، وسبب ذلك يرجع أولاً لبراءة قائدي المندائي بشكل كامل ونهائي من جميع التُهم المفبركة ضده، والثاني لنجاح إدارتي زمام أخطر عملية مصيرية معقدة كان يمكنها بمرحلتيها أن تطيح برأسي، وتحولان صفتي من شاهد إلى متهم، وثالثهما فشل وانكفاء جميع خطط المتطرفين الحاقدين في الإطاحة الكاملة برأسي ورأس القائد.

يبدو أن هذا البلد لا يكتفي بالحروب الخارجية؛ بل يسعى في خلق حروب طائفية داخلية تافهة تفقده مُخلصيه وأبنائه البررة، وتجعلهم على طرف نقيض مع العمل الجاد والبناء المخلص والشعور بالوطنية الحقة.

مضى وقت طويل دون سماعي لنتيجة استقالاتي السابقة، لكن هذا لم يجعلني أيأس أو أحزن، ومضيتُ في طريقة عملي ذاتها وطريقة حياتي الأخرى خارج أسوار المعمل، الصبر جميل كما يُقال وأنا أجيد العزف على هذا الشيء، إذ لا بد من تسيير خطتي بعقل راجح ولكن بهدوء، تمر الأيام والشهور دون أن أحصل على أي إجابة، مما دعاني إلى كتابة استقالة أخرى وإرسالها إلى القيادة مرة جديدة.

كنت أحاول استفزازهم واللعب على أوتار صبرهم، وكذلك إظهار جديتي لهم في ترك الخدمة في الجيش، لاسيما وأن الكثير من الضباط من ذوي الرتب الرفيعة كانو غالبًا ما يرددون رغبتهم في التقاعد، ولكن بعد حصولهم عليه يعودون بعد حين إليه تائبين كالأسماك التي لا تستطيع مفارقة الماء، مما أفقد الجميع مصداقية كلامهم ومواقفهم، ولكن هذا لن يشملني، إذ أنني قد اتخذتُ قراري النهائي والحاسم دون رجعة أو تردد.

يوم رائق يلفهُ ضوء الشمس الدافئ يرن جرس الهاتف الذي يخدش الأذان، عبر الهاتف أتحدث مع ضابط ركن المعمل الذي بدوره يبلغني بضرورة الذهاب في اليوم التالي إلى مديرية الهندسة الجوية، التابعة لقيادة القوة الجوية، لمقابلة قائد المديرية اللواء المهندس (م.ر)... ما أن أغلقت سماعة الهاتف حتى قلتُ في نفسي لقد حانت ساعة العمل والحقيقة كي أحقق هدفي، لقد حانت هذه اللحظة التي كنت أنتظرها دهر، بعد أن رجوت الله مرارًا أن يجعلها، ولكن يجب أن أدير هذه المحادثة بشكل جيد كي أتمكن من نيل هدفي، سأبذل أفضل جهودي وسيكون الله بالتأكيد إلى جانبي.

في ليلة سقط فيها شهاب صغير مضيء من أعلى رأس الكون، فبدا كأنه يرسم خط فاصل بين حيز الحياة ومساحة الموت، أو قد يكون بين تواضع الأرض وهيبة السماء، جلست مع زوجتي على حافة سريرنا الدافئ بعد أن استولى الرقاد على أطفالنا الأبرياء، نتحدث ما الذي سيحصل غدًا وكيف سيكون رد فعلي، هل سيصب قائد مديرية الهندسة جام غضبه عليّ؟ ليست أي كلمات أو مواقف تجعلني أذعُر، إذًا لأكون مستعد لذلك طالما أنا من قرر المسير بهذا الدرب، أم ستسير الأمور كما خططتُ لها وستنجح خطتي، أنا مستعد لكل العواقب في حال تفاقم الوضع وساءت الأحوال أكثر مما أتوقع، لا بأس فإن المثل العراقي الشهير يقول (إن المُبتل لا يخاف من المطر) وأنا مبتل بالأساس حتى النُخاع.

ولجتُ إلى مديرية الهندسة الجوية واستقريت أخيرًا في مكتب ضابط ركن قائد المديرية العقيد المهندس (ج.أ)، الذي ينتسب لنفس الأكاديمية التي تخرجت منها، عدا أنه كان في الدفعة الثانية، كانت لي علاقة طيبة.

أخذت وصديقي نتحدث بأمور عديدة حول العمل في المعمل، فيما يخص أحوالنا الشخصية والمعاشية والاجتماعية، وأحداث أخرى كانت قد مرت على كلانا أثناء دراستنا في الاتحاد السوفيتي، وصولاً إلى أمر استدعائي من قبل قائد المديرية ورغبته في التحدث معي على موضوع طلب استقالاتي المتكررة من الجيش، أَسَرَّني صديقي أن قائد المديرية كان قد طلب منه ملفي الشخصي والذي يُلخص سيرتي الذاتية وعملي وكل ما يتعلق بي، كما أنه سأل صديقي عن معلوماته التي يعرفها عني.

رن هاتف ضابط الركن، رفع سماعة الهاتف وأحاب بكلمتين فقط "نعم سيدي"؛ وأعاد السماعة إلى مكانها والتفت إليّ وقال:

– تفضل... قائد المديرية في انتظارك.

نهضت على عجل بعد أن قرأت الشهادة المندائية (أكا هيي... أكا ماري... أكا مندا إدهيي) [1]، طرقت الباب ودخلت، أديت التحية العسكرية له فرحب بي وطلب مني الجلوس على الكرسي الجانبي المحاذي لمنضدته الكبيرة ففعلت دون تأخير، رحب بي وأخذ قائد المديرية يسألني عن أحوالي، ثم دون أي لف أو دوران دخل في صلب موضوع الاستقالة وقال:

– ما هذا عقيد عباس؟ ما موضوع استقالاتك المتعددة المتكررة التي ترسلها بين أسبوع وآخر والتي صدَّعت رأسي؟ ما الموضوع؟ ولماذا تريد الاستقالة بالأساس؟

كان اللواء المهندس قائد المديرية الذي بيده القدرة والصلاحية الكاملة على تسيير عملية استقالتي إذا ما اقتنع ووافق عليها، لذا كان عليّ أن أكون حاسم في طلبي دون تردد، قاطع في كلامي دون أي خوف، وكان عليّ أن أقنعه بطريقة أو أخرى، فأجبته بصوتٍ حادٍ ولكن خفيض:

– شكرًا سيدي، ولكن أولاً دعني أقول لك شيئًا مهمًا.

– ما هو؟

– أنا أعرف من تكون جيدًا، ولذلك سوف أتكلم بصراحة مطلقة لم تسمعها من أحد غيري، سأتكلم وفق معطيات الحقيقة والواقع، ولكن الأهم ما في ذلك أن تمنحني الأمان فيما ستسمع مني، لأن هذا مفيد لك وللنظام كونك أحد أركانه، فهل تعدني بالأمان يا سيدي كي أتحدث لك عما في داخلي؟

– نعم أعدك بالأمان، وتفضل أطلق كل ما لديك.

تحدثت إلى نفسي "عليك أن تتحلى بالشجاعة والإقدام والصبر" وأضفت:

– يا سيدي؛ أنا شخص صابئي مندائي الديانة يعني لستُ منكم...

لم تعجبه أول جملة قلتها فأجاب مُعترضًا:

١– أكا هيي... أكا ماري... أكا مندا إدهيي : تعني (الله موجود... الرَّب موجود... العليم موجود).

– ما هذا الذي تقول عقيد عباس، لا يجدر بك قول هذا، إذ أنَّ الدولة لا تسمح بذلك.

أجبته مباشرة:

– ولكن يا سيدي هذه الحقيقة، انظر ما يحدث، أنا تمت معاقبتي بقطع راتبي، وهذا بالتأكيد سيوقف ترقيتي، وكذلك قمتم بتجريدي من منصبي كقائد جناح في معمل تصليح المحركات، أما قائد المعمل عميد بشير فيقبع في سجن الاستخبارات حتى الآن، والسؤال لماذا يحدث كل هذا! أليس لأننا صابئة مندائيون ولسنا على دينكم؟ ألسنا جميعنا نعبُد الله وننزههُ كُل على طريقته؟ ألسنا من رعايا الله؟ إن المجتمعات الإنسانية التي تنطلق من مبادئ سامية تجعلها أقوى وتتعاون أكثر من المجتمعات التي تتغلغل فيها التفرقة الدينية أو المذهبية بكل أشكالها... أليس صحيح هذا يا سيدي؟.

يُحكى أن ديك كان يؤذن عند فجر كل يوم، فأتى صاحب المزرعة وقال له لا تؤذن مُجددًا وإلا سأنتف ريشك، خاف الديك وتوقف عن الآذان، فالفجر لا ينتظرُ إذني ولا آذاني قال لنفسه، وديوك الحي لا تقصر، بعد مرور أسبوع عاد صاحب المزرعة ليقول للديك إذا لم تكاكي كالدجاجات سأنتف ريشك، تنازل الديك عن الصياح والتزم نقنقة الدجاجات، وبعد شهر على تدجين الصوت ظهر صاحب المزرعة من جديد ليبلغ الديك بأخر فرماناته، الآن إذا لم تبض كالدجاجات سأذبحك غدًا، بكى الديك، بكى حتى ابتل ريشهُ وقال يا ليتني متُّ وأنا أؤذن.

عليَّ أن أتخذ من هذه الحكمة عبرة، وأن أتحلى بالشجاعة القصوى في إبداء موقفي، إنها الشيء الوحيد الذي يدحر الخوف، وأقول في نفسي إن كان عليّ أن أموت فيجب أن أموت واقف مُبتسم، لذا أدمتُ زخم هجومي.

– هل نحن قوم ننتمي إلى هذا البلد أم لا؟ هل المشكلة تكمن في كوننا لسنا على دينكم أم ماذا؟ ألم يخرج مِنا علماء ومفكرين وعباقرة مثل أبو إسحاق الصابئي

وثابت بن قرة والبتاني وعبد الجبار عبد الله وعبد الرزاق عبد الواحد وغيرهم، ألم نقدم للحضارة الرافدينية الكثير؟ وأخيرًا ألم نقدم شهداء كثيرون للدفاع عن حياض هذا الوطن وأقربهم لي الشهيد ابن عمي المُدرس عزيز الزهيري زوج شقيقتي؟

الظاهر أني فاجأته ولم يكن مُهيأ لمثل هذا الطرح المُباشر، لذا كان يستمع إلى ما أقوله بعناية كاملة، ويبدو أنه يحاول أن يصل إلى إجابات دون نتيجة، ولكنه في جميع الأحوال استمر بسماع كلامي، وكنتُ على يقين أني سأستخدم نفس الأسلوب الناجح الذي اتبعته سابقًا مع محكمة الأصنام الثلاثة في مديرية الاستخبارات العامة، حيث سأستغل اسم رمز السلطة المطلقة كغطاء صلب لهجومي.

– السيد الرئيس القائد صدام حسين يأمر جميع العراقيين وتحديدًا الجيش بالعمل لإعادة إعمار ما دمره الأشرار خلال العدوان الغاشم وأنا أعمل بوصيته حرفيًا، وكذلك سيادته قال اعملوا وتجاوزوا الروتين دون استغلال أو سرقة، فعندما نقوم بتطبيق أوامره العليا ونعمل بضمير وإخلاص كي نعيد بناء المعمل، ولقد نجحنا بالفعل بذلك، وأصبح المعمل ينتج بطاقته القصوى كما كان سابقًا قبل العدوان، حيث يأتي من يجلس خلف الكواليس ويطعننا في ظهورنا ويكتب علينا تقارير حزبية كاذبة، وهذه النتيجة كما ترى يا سيدي.

أخذت نفس عميق كي أكسب طاقة إضافية حتى أستمر في هجومي دون أن أدعه يلتقط أنفاسه وأضفت:

– سيدي أنا هكذا أعمل، لا أقبل على أي شخص لا يعمل بضمير حتى وإن كان أبي، نعم أقولها حتى لو كان أبي، يا سيدي إن أتعس ما في الأمر هو أن يحل محلي في المنصب شخص هو من كان وراء كل هذه الفتنة، فكيف يستقيم الأمران؟ ما الذي فعلناه كي تتغير حياتنا وعملنا فجأة؟ نحن جزء من نسيج هذا

الشعب، لا بل نحن شعب أصيل في هذا الوطن، فلماذا هذا التعامل غير الإنساني معنا؟

صرتُ أجول ببصري في أرجاء مكتب قائد مديرية الهندسة الجوية، وأشيح بنظري عبر الشباك المُطل على الشارع الفرعي المار بجوار بناية قيادة القوة الجوية، أنتقلُ بخيالي إلى تقاطع الرواد في ضاحية المنصور، وأستعيد ذكرى افتتاح أول مطعم لبيع البيتزا التي لم تكن ذائعة في المجتمع العراقي آنذاك، حينها دعوت عائلتي إلى وجبة عشاء كان يُفترض أن تكون راقية وكانت في مطعم البيتزا الجديد.

كان الناس يصطفون في طابور طويل جدًا كي يحصلوا على الطعام، إذ أن المطعم كان صغير نسبة إلى عدد الراغبين بالشراء، كان علينا تحمل العناء والانتظار طويلاً كي نحصل على هذا الطعام الجديد، ما أن جاء العامل يحمل طلبنا الذي توقعناه سيكون كافيًا جدًا كي نتعشى، نشبع وتمتلئ بطوننا، وإن تبقى منه شيء فسوف نأخذه معنا البيت.

كان العامل يحمل طبق سميك يتكون من شريحتين، اعتقدنا أنهما الطعام أو بالأصح البيتزا، ولكن وبعد أن وضع العامل الطعام ظهر أن الشريحة السميكة السفلية ما هي إلا عبارة عن قطعة خشبية دائرية توضع عليها البيتزا، أما البيتزا فكانت عبارة عن شريحة خفيفة وزعناها علينا بالتساوي وسط دهشة الجميع، تناولناها بسرعة خاطفة، لم تكفنا هذه البيتزا ولم تسد رمقنا، لا بل اتخذت ركن صغير جدًا في بطوننا، ولم نكن بالصبر الوفير كي نقضي وقت طويل آخر في طابور الانتظار، لذا انتهينا من اللعب في هذه المسرحية التراجيدية على مضض.

نهضنا دون قناعة ومعدتنا غير راضية، لذا توجهنا للبيت مباشرة كي تصنع زوجتي عشاء تقليدي، كان عبارة عن بيض مَقلي مع الطماطم مع أنواع

السلطات الشهية، أكلنا حتى شبعنا فعلاً فما كان من ابني البكر (زيد) إلا أن يقول هازئًا:

– بابا كانت البيتزا التي دعوتنا على أكلها كالمقبلات قبل الأكل، وها نحن نحصل في بيتنا على العشاء الرئيسي.

عندها توالت ضحكاتنا المجلجلة التي خرجت ملئ أفئدتنا، وارتدت أصدائها في أرجاء غرفة معيشتنا الدافئة، وأصبحنا نتندر على ما حدث كلما نتذكر هذه البيتزا، كان بإمكاني تخيل ابتسامات وقهقهات أطفالي من خلال زجاج الشباك.

كنت متوتر جدًا، إلا أني هدأت قليلاً، لذا قررت أن أزيد من زخم هجومي عليه لأجعله في موقف الدفاع عنه في الهجوم فقلت:

– سيدي إن النائب ضابط الذي كتب تقرير حزبي ضدي وضد قائد المعمل هو فاشل وغير حريص، بدليل اختباءه في مطعم المراتب طوال الوقت، في وقت كان المخلصون والوطنيون أمثالنا يجاهدون ويعملون تحت التراب وفي حفر القنابل الكبيرة وبين أنقاض القصف لإعادة بناء المعمل، فهل هذا جزائنا لأنه كوننا صابئة مندائيون وطنيون مخلصون ونعمل بضمير؟ يبدو كذلك، وإن كان كذلك فإن كل كلامي صحيح وواقعي، لماذا تشتعل شدة الحقد والكراهية من أناس تافهين على مواطنين مخلصين وطنيين مثلنا، رغم أنه لم يظهر أي عميل أو جاسوس أو خائن منا في جميع الحقب التاريخية للعراق، أليس صحيح يا سيدي! لا أحد يكترث لما يحدث لنا سوى من له قلب إنسان حقيقي مثلك.

لم أكن أعلم أن قائد المديرية هذا والذي بيده الآن قرار استقالتي من الجيش ومصير حياتي اللاحقة هو العقل المُدبر الرئيسي لعملية اعتقال وسجن العميد المندائي قائد المعمل، حيث علمتُ لاحقًا أنه قد تمَّ ترشيح العميد بشير قائد المعمل إلى إشغال منصب معاون قائد القوة الجوية للشؤون الهندسية، في حين أنَّ قائد المديرية (م.ر) كان يسعى بكل جهده أن يحصل على هذا المنصب الرفيع، معتمد على كونه ينحدر من محافظة تكريت وقريب لرأس النظام، ولهذا

قام بتدبير هذا المخطط وبالتعاون مع باقي أفراد المؤامرة، وبهذا يكون هو المسؤول تباعًا عن عقوبتي وإيقاف ترقيتي وكذلك إزاحتي من منصبي، أي أن فكرة الإطاحة بي وبقائدي قد رسخت برأس العديد من الأشخاص الذين تطابقت أهدافهم رغم اختلافها وأولهم قائد هذه المديرية، هذا الذي يدعي الآن البراءة والطيبة.

قائد المديرية يقول شيء بدا نفسه غير مقتنع به:

– ولكن الأمور ليست بالتمام كما تقول عقيد عباس...

العالم ألبرت أينشتاين قال ذات مرة: "الجميع عباقرة! ولكن إن حَكمت على سمكة بقدرتها على تسلق الشجر، فإنها ستعيش حياتها مؤمنة أنها غبية"، وأنا لن أسمح لأحد أن يجعلني أُفكِّر أني مثل السمكة، ولن أقبل أن أفقد حقي أو إنسانيتي في هذا الوطن... أنظرُ إليه وأرى بريق عينيه، قد يكون إعجاب بشجاعتي أو لا يكون، ولكني في كل الأحوال أشعر بنجاح هجومي عليه حين قال:

– عقيد عباس ماذا تريد الآن؟ ماذا تقول إن جعلتك قائد في مكان ما؟

لم أجب على سؤاله لذا كرره مرة أخرى:

– هل تريد أن أجعلك قائد؟ قُل لي فقط أين تريد وسيكون لك ذلك فورًا، هل تريد أن أجعلك قائد؟

عليّ الانتظار قليلاً ريثما يكمل حديثه حتى أجهز عليه بهجومي اللاحق، لم أكن شخص أبله أو ساذج كي أقبل بعروضه التي فجأة أصبحت جد سخية بعد كل ما حصل لي، كيف أمكنه أن يفكر أني سأقبل بعرضه وسأبقى أعمل في الجيش الذي فقد جميع مقومات حياته ونجاحه، يجب ألا أفسد خطتي مهما تعرضت للضغوط أو الإغراءات.

– هل تريد أن تكون قائد لأي جناح هندسي في أية قاعدة أو قائد معمل أو أي مكان أخر؟

لابد أن أمضي قدمًا في خطتي التي تبدو أنها قاب قوسين أو أدنى من النجاح، وبدأت أتحدث بأسلوب وتكتيك آخر تمامًا:

– يا سيدي أنا أعيل ثلاث عوائل؛ أولهم عائلتي، وثانيهم عائلة والديّ، وثالثهم عائلة شقيقتي زوجة الشهيد ابن عمي الذي استشهد في معركة القادسية، عليّ أن أعمل جاهد كي أستطيع إطعامهم في ظل هذه الظروف الاقتصادية الصعبة كما تعرف...

هنا بدأت أعزف منفرد على وتر المشاعر الإنسانية وأضفت:

– أنا أرجوك أن توافق على استقالتي كي تدعني أواصل حياتي بهدوء بعد أن فقدت طعم الأمان في عملي.

قائد المديرية:

– لقد اطلعت وقرأت ملف سيرتك الشخصية والعلمية والعملية، وهي بالحقيقة رائعة ومُشرفة، وسألت العديد من القادة عنك، حيث أشادوا بك وبعملك، لذا احترامًا وتقديرًا لخدمتك المتفانية الممتازة في الجيش والقوة الجوية لذا فإني لن أقبل إطلاقًا باستقالتك دون راتب، إنما سوف أمنحك تقاعد كامل براتب كامل، ولكن بشرط...

لم أدعه يكمل حتى انتفضت موافق على جميع شروطه، لأن المرء لا يعلم ماذا سيحصل في اللحظة التالية:

– بشرط أن تقوم بتنظيم أمور شعبة السيطرة النوعية في معملكم كي يستقيم عملها، وأنا أعدك بالتقاعد قريبًا.

لقد أوقعته في الفخ ونجحت في استمالته إليّ وجعلته يرضخ لمطلبي، ويوافق على إنهاء خدمتي في الجيش، أو قد أكون مُخطئ في ذلك، إذ يمكن أن يكون

قد خطط لهذه المسرحية بعد أن اتخذ قراره مُسبقًا، وبذلك يكون قد تخلص مني ومن قائدي المندائي بضربة واحدة.

– أنا موافق على جميع شروطك وأنا مستعد لتنظيم أمور شعبة السيطرة النوعية، وأن أجعلها تعمل بطاقة قصوى، ولكن أرجوك سيدي عدني الآن بالتقاعد...

لم أدع له مجال للمراوغة أو التراجع، إذ كنت قد طوقته بين كماشتي الجرأة والتحدي، كان لا بد من حصول هذا عاجلاً أم أجلاً، لذا قال لي:

– نعم... إني أعدك بالتقاعد قريبًا إن شاء الله.

لقد أبليتُ حسنًا، نهضت مددتُ له يدي مُصافحًا، ضغطتُ بقوة على يده كي أذكره بوعده، شكرته وكررتُ شكري بقوة على موقفه ووعده لي بالتقاعد وتمنيت عليه الإيفاء به، دعوت له بالصحة والسلامة وخرجت من مكتبه.

كان يبدو كأن العالم برمته قد أصبح بيدي، كان ثمة مشاعر رائعة تختلج فؤادي، وبدأت أشعر أنه قد تحققت أحلامي بسرعة فائقة وحلقتُ من السعادة إلى السماء، الأمل، عليّ أن أتحلى بالأمل، إنه الشيء الوحيد الذي يدحر الملل، يبدو أن الخطوة الأولى من خطتي قد نجحت وسوف استمر بالخطوة الثانية في فك ارتباطي بالحزب الحاكم بشكل كامل رغم ما يحفها من مخاطر جَمّة، كان قدري أن أحلق في أكثر قصص التحدي والخوف تعقيدًا.

بعد شهور قليلة تمَّ إصدار المرسوم الجمهوري القاضي بتقاعدي، وبذلك أنهيتُ علاقتي بالجيش والقوة الجوية التي طالما كنت وفيًا وأحببت العمل والإخلاص لهما، وبقي لديّ هدف واحد وهو خلاصي من حزب السلطة الحاكم الذي تمَّ لاحقًا والذي سردته في حكايتي تحت عنوان (الإضبارة الحزبية)، وبهذا أصبحت كعُصفورٍ حُرٍّ يقفز يحلق ويطير كيفما يشاء دون أي حواجز أو معوقات.